عام

حد القصص وخصائصها في النصوص المقدسة

عبد الباقي الهنداوي

باحث مغربي

قسم الدراسات الدينية

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

مقدّمة:

إنّ البحث في خصائص قصص النّصوص المقدّسة يقوم على إقرار ضمني بأنّ قصص تلك النصوص تحتوي في مظانها على جميع متطلّبات القصّ ومقوّماته، ولتبيّن الخصائص المميزة لقصص النصوص المقدّسة (العهد القديم، العهد الجديد، القرآن) ارتأينا أنْ نتناول في مطلع المقال مفهوم السّرد، باعتباره المصطلح الجامع لسائر النّصوص القصصيّة، وقد أعقبنا إطلالتنا على السّرد ببسط جملة من الخصائص المميّزة للقصص في الكتاب المقدّس والقرآن من جهة، ومن جهة أخرى سعينا إلى إبراز وجوه الاختلاف والاتفاق بين الأقاصيص والقصص.[1]

إنّ الأجناس الّتي نتناول في هذا الفصل، رغم تباينها تاريخيّا واختلاف مرجعيّاتها الثّقافيّة والفكريّة، تتّفق في كونها أجناسا تقوم على السّرد.

1– حدّ السّرد:

السّرد في تعريفه اللّغويّ العربيّ هو: "تَقْدِمَةُ شَيْء إِلَى شَيْء تَأْتِي بِه مُتَّسِقاً بَعْضُه فِي إِثْرِ بَعْضٍ مُتَتَابِعاً سَرَد الحديث ونحوه يَسْرُدُه سَرْداً إذا تابعه، وفلان يَسْرُد الحديث سرداً إذا كان جَيِّد السّياق له وفي صفة كلامه $ لم يكن يَسْرُد الحديث سرداً أي يتابعه ويستعجل فيه، وسَرَد القرآن تابع قراءَته [...]، وسرد فلان الصوم إذا والاه وتابعه ومنه الحديث كان يَسْرُد الصوم سَرْداً".[2] أمّا من الوجهة الاصطلاحيّة، فـ"السّرد عرض للأحداث بطريقة تتابعية مفصّلة في شكل أدبيّ".[3]

والقصّ والسّرد واحد عند المعاصرين، من ذلك ما نجده في "طرائق تحليل القصّة" للصّادق قسّومة الّذي عرّف السّرد/القصّ بأنّه"عمليّة اضطلاع الرّاوي (أومَن ينُوبه) بتقديم المحتوى، وعليها يتوقّف اختيار نظام الرّواية وما يتّصل به من مسائل، مثل الرّؤية والصّوت وغيرهما، وقد يكون هذا الرّاوي حقيقيّا، مثلما هو الشّأن في البرامج والقصص التّاريخيّة وما شاكلها، وقد يكون مُتخيّلا Fictif".[4]

---

[1]- خلف اللّه، محمد أحمد، **الفنّ القصصي في القرآن**، تعليق خليل عبد الكريم، ط 4، دار سينا، دار الانتشار العربي، القاهرة/ مصر بيروت لبنان، 1999، فصل الفنّ في القصّة القرآنيّة" من ص147 وما بعدها، وقد قسّم محمّد أحمد خلف اللّه القصص القرآني إلى ثلاثة ألوان: الأوّل تاريخيّ والثّاني تمثيلي والثّالث أسطوريّ.

[2]- ابن منظور، جمال الدّين، **لسان العرب**، مادة (س، ر، د)، دار صادر، ط1، بيروت لبنان، 1997، ج 3، ص 273

[3]- Exposé écrit et détaillé d'une Suite de Faits dans une forme littéraire ; (Narration) Dictionnaire le nouveau Petit Robert, Paris, 2001

[4]- راجع قسومة، الصّادق، **طرائق تحليل القصّة**،سلسلة مفاتيح، دار الجنوب، ط 1، تونس، 2000، ص 24

إنّ التّعريفات السّابقة تكشف الشّروط الّتي يجب توفّرها في الخطاب أو النّصّ كي نطلق عليه تسميّة نصّ سرديّ أو خطاب سرديّ. فالتّماسك يجب أنْ يكون منطقيّا، ويجب أنْ يكون السّرد حاملا لغاية ينتهي إليها المسرود له، وهو- السّرد- إلى جانب ذلك رؤية فنيّة في عرض المحتوى القصصيّ (الأحداث، الفضاء، الزّمن، ... إلخ).

وتختلف أشكال السّرد ومجالاته، فمنه ما يتعلّق بالأقوال، ومنه ما يتعلّق بالأحوال، ومنه ما يتعلّق بالأعمال، على أنّ ما يظلّ ثابتا في جميع الوضعيّات أنّ السّرد مرتبط ارتباطا وثيقا بالرّاوي الّذي يمثّل الحلقة الواصلة بين المسرود له والسّرد، فنحن بذلك لا نتعامل مع الأقوال أو الأحوال أو الأعمال في تحيّزها في عالم الأشياء، بل نتعامل معها ضمن عالم مُتخيّل مبتدع.

2- القصص في الكتاب المقدّس:

للقصص في "الكتاب المقدّس" بعهديه حضور لافت للانتباه؛ فهي تحضر في الأقسام الأربعة المكوّنة للعهد القديم: أسفار شريعة/ التّوراة، وأسفار شعريّة وأسفار تاريخيّة وأسفار أنبياء دون استثناء، وكذا الأمر بالنسبة إلى "العهد الجديد"، سواء تعلق الأمر بالأناجيل القانونيّة الأربعة/ البشائر أو بالأسفار التّعليميّة والسفر التّاريخيّ "أعمال الرّسل" و"سفر الرّؤيا".

وقد يذهب الظّنّ بمن لم يدرس "الكتاب المقدّس" أنّ القصص سمة من سمات الأسفار التّاريخيّة والأسفار النّبويّة دون غيرها، بيد أنّنا إذا ما تأمّلنا جميع أسفار "العهد الجديد" ألفينا مقوّمات القصّ تخترقها جميعا، بل إنّ القصص حاضرة في الأسفار غير القانونيّة بالنّسبة إلى "العهد القديم"[5] والأناجيل غير القانونيّة بالنّسبة إلى "العهد الجديد".[6]

وقد تعلّق القصص في "العهد القديم" بالأنبياء (يوسف، موسى...) أو بالشّخصيّات الدّينيّة (الكهّان) أو التّاريخيّة (القضاة، الملوك) أو القادة العسكريين (يشوع). وجميع هذه القصص تشترك في كونها تصوّر أحداثا تتعلّق بشخصيّات عامة/ المجتمع تعكس حيواتها واقع المجتمع اليهوديّ.

وبناء على ذلك، لنا أنْ نعتبر أنّ هذه القصص قصصا فرعيّة مضمّنة في قصّة أشمل وأعمّ هي قصّة تشكّل الجماعة اليهوديّة، وتحوّلها من مجموعة مُضطهدة إلى دولة/ مملكة مزدهرة محلّ أطماع الشّعوب المجاورة والبعيدة.

[5]- مثال ذلك سفر طوبيا.
[6]- مثال ذلك إنجيل الطّفولة وإنجيل برنابا.

أمّا بخصوص "العهد الجديد"، فإنّ قصصه قد خُصّصت ليسوع في ما يتعلّق بالأناجيل وأغلب الرّسائل، على أنّنا نعثر في سفر "أعمال الرّسل" على نتف ومشاهد تتّصل بالرّسل.

وما يلفت الانتباه في هذه المشاهد الواردة في سفر "أعمال الرّسل" تعلّقها بأكثر من شخصيّة- رغم أنّ واضع السّفر قد ركّز على كلّ من الرّسول بطرس والرّسول بولس-، زد على ذلك أنّ هذه المقاطع والمشاهد تظلّ شديدة الالتصاق بفترة مُعيّنة من حياة الرّسول؛ أيْ فترة التّبشير بالإنجيل- باستثناء بولس-، وهي إلى جانب ذلك تجعل من سائر الرّسل امتدادا ليسوع، فكأنّنا إزاء قصّة واحدة هي قصّة المسيح من ولادته إلى صلبه ورفعه فالإعداد لرجوعه.

3– القصص القرآنيّ:

لقد تواتر ذكر مادة (ق، ص، ص) في "القرآن" ستا وعشرين مرّة، وقد وردت هذه المواضع للدّلالة على معان مختلفة، أهمّها:

- تتبّع خطى الإنسان، مثل قوله تعالى: "قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا"[7] و: "وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وهُمْ لَا يَشْعُرُونَ".[8]

- الحكي والإخبار والإنباء، مثل قوله تعالى: "نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وزِدْنَاهُمْ هُدًى"[9] وفي قوله تعالى: "إِنَّ هَذَا لَهُو الْقَصَصُ الْحَقُّ ومَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللّهُ ونَّ اللّهَ لَهُو الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ".[10]

وقد طغى المعنى الثّاني على سائر المعاني عددا، إذ تُذكر مادة (ق، ص، ص) للدّلالة على الحكي والإخبار في أكثر من موضع، وقد تعلّق هذا المعنى في أكثر الأحيان بالسّلف من الأنبياء والأقوام الغابرة.

ونحن إذا ما تأمّلنا في المعاجم اللّغويّة القديمة ألفيناها تعرّف"الْقِصَّةَ [بِأَنَّهَا] الْخَبَرُ، وهُو القَصَصُ وقَصَّ عَلَيَّ خَبَرَهُ يَقُصُّه قَصّاً وقَصَصاً أَوْرَدَه والْقَصَصُ الْخَبَرُ [...] والْقِصَصِ بِكَسْرِ الْقَافِ جَمْعُ الْقِصَّةِ الْتِيْ تُكْتَبُ".[11]

---

[7]- سورة الكهف 18 /64

[8]- سورة القصص 11/28

[9]- سورة الكهف 13/18

[10]- سورة آل عمران 62/3

[11]- راجع ابن منظور (جمال الدّين): **لسان العرب**، (سبق ذكره)، مادة (ق، ص، ص)، ج 5، ص ص 269-270

إنّ "القرآن" اعتبر في أربعة مواضع أنّ القصّ مساو للنّبإ.[12] فإذا بالقصص يصبح بذلك جزءا من مهام النّبيّ - نبأ-، وعنصرا رئيسا من عناصر الوحي، وكأنّنا بالنّصّ المقدّس جمعٌ في صيغة المفرد، فهو نصّ تشريعيّ ونصّ عقائديّ ينظّم صلة العبد بربّه، وهو أيضا نصّ قصصيّ يُخبرنا عن الأمم والأنبياء السّابقين، فيغدو بذلك الماضي جزءا من الحاضر - حاضر الرّسول محمّد لحظة الدّعوة -، وإذا بسائر الأنبياء بمختلف أمصارهم وأزمانهم وأحداث قصصهم يُكَوِّنُون– بما في ذلك محمّد- قصّة تقدّم لنا صورة النّبيّ المثال؛ أيْ الإنسان المنشود، هكذا تنقلب القصص قصّة واحدة هي قصّة الإنسان المُؤمن بالله.

ويبدو أنّ "القرآن" يقدّم تلك القصص، باعتبارها حقائق تاريخيّة بصرف النّظر عن طبيعة الأحداث الّتي تتضمّنها كلّ قصّة من تلك القصص. أضف إلى ذلك أنّنا وجدنا "القرآن" لا يقتصر على سرد قصص الأنبياء، بل يسرد أيضا قصصا تتعلّق بأناس صالحين، مثل أصحاب الرّقيم في سورة الكهف،[13] أو الأقوام والأمم البائدة الغابرة.

والملاحظ أنّ النّصّ القرآنيّ قد أولى أهمّيّة واضحة للقصص، إذ تعدّدت القصص وتتابعت المقاطع القصصيّة في سور عديدة، بل إنّ "القرآن" خصّص سورة بأكملها للقصص تحمل نفس الاسم "سورة القصص". زد على ذلك كثافة حضور مصطلح "القصص"، - أشرنا إلى ذلك منذ حين-. وقد ركّز "القرآن" على الصّنف الأوّل من القصص، ونعني به قصص الأنبياء، فقصص الأمم والأقوام، ولعلّ ذلك هو السّبب الّذي جعل المسلمين يقرنون دائما بين القصص والأنبياء، إذ يكاد يغيب مفهوم القصص المرتبط بالأمم تاركا المجال للقصص المتعلّق بالأنبياء.

والملاحظ أنّ الأنبياء قد ذُكروا في "القرآن" في ثلاثة أشكال، ففي بعض المواضع، نجد ذكرا لأسماء جملة من الأنبياء، وقد عطف بعضها- الأسماء- على بعض، وقد يرد ذكرهم في شكل خاطف وسريع، إذ يتمّ ذكر النّبيّ أو الرّسول في آية أو آيتين. أمّا الشّكل الثّالث، - وهو الأكثر تواترا في "القرآن"- فيتمّ فيه ذكر النّبيّ ضمن قصّة خاصة به، وقد ترد القصّة في سورة واحدة شأن قصّة يوسف، وقد ترد في مقاطع مختلفة من سور عديدة شأن قصّة عيسى وموسى. على أنّ أغلب هذه القصص تشترك في غلبة المفارق والعجيب والغريب.[14] أمّا في بنائها، فهي لا تخرج في مستوى نهاياتها عن نمط من ثلاثة؛ الأوّل تنتهي فيه القصّة بانتصار الله/ النّبيّ

---

[12]- نقرأ في سورة الكهف 13/18 "**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**" **وفي طه 99/20 "كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا**" وفي الأعراف 101/7 "**تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ**" وفي هود 120/11 "**وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**".

[13]- سورة الكهف 8/18-26

[14]- ذكر السّعفي، وحيد، العجيب والغريب في تفسير القرآن تفسير ابن كثير أنموذجا، دار تبر الزّمان، تونس، 2001، ص38، أنّ القرآن قد "تضمّن [...] كثيرا من العجيب والغريب على مستوى اللفظ والمعنى والمكان والزّمان والحدث وهيكل القصّة ....".

(محمّد، صالح، إبراهيم ... الخ). أمّا الثّاني، فيتمثل في انقطاع حبل السّرد عند نقطة معيّنة دون بلوغ النّهاية (عيسى). أمّا النّمط الثّالث، فلا نجد فيه نهاية واضحة للقصّة، ويتعلّق هذا الأمر بقصص الأنبياء الّذين لم يذكر "القرآن" أنّهم واجهوا أقوامهم.

4– القصص والأقاصيص:

إنّ النّظر في ما بين هذين الجنسين من صلات وفواصل، قد يكون عديم القيمة، إذا ما أقررنا بأنّ الأقصوصة شكلٌ إبداعيّ معاصر لا وجود له في القرون الخوالي، على أنّنا نجد في المدوّنة الدّينيّة القديمة - لا سيما العهد القديم والعهد الجديد - ما يُوحي بالتّداخل بين هذين النّمطين من أنماط القصّ، وهو ما دفع بمحمد أحمد خلف الله في كتابه "الفنّ القصصي في القرآن" إلى القول إنّ "القصّة الدّينيّة ليست إلاّ لونا من ألوان القصص الأدبيّ".[15]

على أنّ هذا التّصوّر يثير أسئلة عديدة حول صلة القصّة الدّينيّة بالعالم الواقعي؛ فنحن لا نعلم على وجه الدّقة العناصر المحدّدة لمنزلة هذه العلاقة هل هي طبيعة المواضيع Thèmes أم هي الدّافع والحافز Motif الّذي يتحكّم في واضع النّص- وكذلك القرّاء- أم أنّ المسألة تتعلّق بهويّة القارئ وصلته بالنّصّ.

إنّ ما يميّز القصص الدّينيّ عن الأقاصيص- في تقديرنا- يكمن في وعي القارئ بطبيعة القصّة؛ فالقصّة الدّينيّة تقدّم نفسها للقارئ على أنّها من وحي الله- نصّا ومعنى أو معنى دون النّصّ- وبأنّها قصّة حدثت وقائعها في عالم البشر حقيقة لا مجازا، ويكون الله أو من ينوبه الشّخصيّة الرّئيسة الّتي تنشدّ إليها جميع الأحداث،[16] وهي تقوم على صراع واضح بين قوى الخير من أنبياء ورجال صالحين ومؤمنين من جهة، وقوى الشّرّ أيْ الشّيطان وحزبه من الكفّار والمشركين من جهة أخرى، وتكون الأحداث قائمة على الفعل وردّ الفعل في أغلب الأحيان. أمّا النّهاية، فهي واضحة وتكاد تكون ثابتة، وتتمثّل في انتصار الله وأتباعه- بطرق مختلفة.[17] أمّا الأقصوصة، فهي تقدّم نفسها باعتبارها من نسج خيال الإنسان، وهي قد تقصّ وقائع حدثت فعلا، وقد تنسج عالمها الخاص بعيدا عن الحقيقة التّاريخيّة، وهي تبتكر مقوّمات القصّ (الفضاء، الزّمن، الشّخصيّات، الأحداث)، وفق الرّؤى الّتي ينطلق منها مُبدعها، زد على ذلك أنّها لا تصوّر بالضّرورة صراعا بين طرفين معينين، وهي لا تقوم على نهاية بعينها.

---

[15]- خلف الله، محمد أحمد، **الفنّ القصصي في القرآن**، (سبق ذكره)، ص 152

[16]- بخصوص صلة الأحداث بالشّخصيّة الرّئيسة في عالم القصّ. راجع:

Grojnowski (Daniel) ;l.ire la nouvelle ; Ed ,Dunod, Paris, 1993, p 94

[17]- نذكر قصة عيسى/ يسوع فرغم صلبه وموته فإنّ العهد الجديد جعل من هذه النّهاية المأسويّة انتصارا لأنّها حرّرت الإنسان من قيود الخطيئة، ولأنّ المسيح قد قام وجلس عن يمين الآب (راجع العهد الجديد، الرؤيا/ رؤيا يوحنّا 5/ 1-5). أمّا القرآن فيجعل الله يرفع المسيح إليه قبل أنْ تناله يد القتلة.

وإذا ما أردنا أنْ نرسم حدًّا يفصل بين هذين الجنسين من الكتابة، نقول إنّ الأقصوصة وفق تصوّر Thierry Ozwald إمّا أنْ تكون انبجاسيّة/ واقعيّة La nouvelle implosive أو أنْ تكون انفجاريّة / خوارقيّة La nouvelle explosive.

ونحن إذا ما عمدنا إلى اختبار القصص الدّينيّ في ضوء هذا التّصنيف وجدناه ينتمي إلى النّوع الثّاني، فإذا ما عمدنا إلى النّظر إليه من زاوية المُؤمن وجدناه ينتمي إلى النّوع الأوّل. فالكثير من القصص الدّينيّ متى غيّرنا أسماء شخصيّاته أو غيّرنا الفضاءات الّتي تحتضن الأحداث ألفيناها أقاصيص بالمعنى الدّقيق للكلمة، بل إنّنا نجد شذرات القصص النّبويّ متناثرة هنا وهناك في ثنايا كتب أخبار العشّاق.[18]

[18]- نشير على سبيل المثال إلى باب التّعفف في ابن حزم الأندلسيّ الظّاهريّ، علي بن احمد، طوق الحمامة في الألفة والألاّف، تحقيق حسن كامل الصيرفي وإبراهيم الأبياري، دار الفكر للطّباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت لبنان، ص 142 وما بعدها، إذ نجد خبرا يتعلّق بتعفّف شاب راودته امرأة عن نفسه فأبى، وفي الخبر مواقف تذكّرنا بقصّة النّبيّ يوسف في القرآن.

قائمة المراجع المعتمدة:

- **الأناجيل غير القانونية**، منشورات أفلاك، استانبول، تركيا، 2010

- ابن حزم الأندلسيّ الظّاهريّ، علي بن احمد، **طوق الحمامة في الألفة والألاّف**، تحقيق حسن كامل الصيرفي وإبراهيم الأبياري، دار الفكر للطّباعة والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت لبنان.

- خلف الله، محمد أحمد، **الفنّ القصصي في القرآن**، تعليق خليل عبد الكريم، ط4، دار سينا، دار الانتشار العربي، القاهرة/ مصر بيروت لبنان، 1999.

- السّعفي، وحيد، **العجيب والغريب في تفسير القرآن تفسير ابن كثير أنموذجا**، دار تبر الزّمان، تونس، 2001.

- **العهد الجديد**، المؤسسة العالمية للكتاب المقدّس، لندن أنجلترا .

- **العهد القديم**، المؤسسة العالمية للكتاب المقدّس، لندن أنجلترا .

- **القرآن الكريم**، دار ابن كثير، دمشق سوريا.

- قسومة، الصّادق، **طرائق تحليل القصّة**، سلسلة مفاتيح، دار الجنوب، ط 1، تونس، 200.

- ابن منظور، جمال الدّين، **لسان العرب**، مادة (س، ر، د)، دار صادر، ط 1، بيروت لبنان، 1997

- Dictionnaire le nouveau Petit Robert, Paris, 2001

- Grojnowski (Daniel) ,Lire la nouvelle; Ed ,Dunod, Paris, 1993

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هـاتـف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com